

المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

# إشكالية النوم الحالم بمنظور الإعجاز العلمي القرآني

حسن مظفر الرزق

مدير المكتب الاستشاري العلمي

كلية الحدباء الجامعة - الموصل / جمهورية العراق

[www.eajaz.org](http://www.eajaz.org)

المحتويات

[www.eajaz.org](http://www.eajaz.org)

## ١. مقدمة:

إن أهم ما تميزت به جل معطيات عصرنا الراهن هي امتلاك العلم الحديث الإمكانية الكافية للولوج في معظم ميادين المعرفة البشرية، ففتح بذلك كثيراً من الأبواب الموصدة أمام العقل البشري. بيد أن باب النوم والأحلام قد بقي موصداً، حتى فترة قريبة، حيث بدأ العلماء يتلمسون طريقهم في متاهات هذا العلم الغامض، والذي لازال بكراً، وبحاجة إلى مزيد من الكشف والاستقصاء.

والعلم المعاصر، بطبيعته، يستحوذ على مفاتيح مشكلات المعرفة وميادينها، ساعياً إلى إقصاء الخبرات الأخرى، كالمعرفة الدينية، لبيوها في مقام الأساطير عندما يمتلك مفتاحاً لباب موصد من أبوابها. غير أن الوقفة النقدية أمام الإجابات التي طرحها العلم الحديث لحل المشكلات المعرفية لدائرة النوم والأحلام تؤثر نحو ضرورة إشعال الأضواء الحمراء على درب الاتجاهات التفسيرية لهذه الظواهر، لكي لا يعتبرها الباحث المبتدئ، أو القارئ العادي - الذي لا يمتلك القدرة المتبصرة على نقد مناهج العلم الحديث وأدواته - فيتوهم بأن هذه الإجابات هي التفسير الوحيد، والأكثر قبولا لظاهرتي النوم والأحلام، فيشرع بإلصاق تهمة القصور ببقية التفسيرات المطروحة، بحجة مجانبتها للموضوعية العلمية، والدقة الصارمة للعلم، فيسارع إلى إلحاقها بدائرة الأساطير والخيالات الكاذبة للفكر البدائي.

إن المعرفة الدينية لازالت تمتلك خطاباً، وتأويلاً معرفياً للظواهر الكونية، لم يتلق العلم المعاصر منه كل شيء، ومازالت تمتلك من الأسرار، والكلمات، والتأويل، ما لم تبح به بعد. إذن لازال الخطاب الديني المتمثل بالقرآن الكريم قادراً على الكلام، والبوح بأسرار ثرية لمن ينقب بين ثناياه برفق، من أجل هذا أضحت عملية تأويله لسبر ما حواه من إعجاز علمي يفوق اكتشافات العلم المعاصر، ضرورة ينبغي أن تتكئ إلى محاولة بناء عقلانية جديدة، تستثمر الخطاب الإلهي، والسنة النبوية الصحيحة، اللذان تكفل الله تعالى بحفظهما بعيداً عن ساحة التحريف والباطل، حيث تتجاوز المعرفة الإلهية مناهج البحث البشرية التي يلتصق ببشرتها الخطأ والقصور.

سنطرق في هذه الوقفة على باب محورين أساسيين في دائرة بيان الإعجاز العلمي القرآني، بميدان النوم والأحلام (الأول): حقيقة المراحل التي يمر بها النائم، و(الثاني): بيان مصدر الأحلام لغرض إزالة إشكالية تفسير النوم الحالم لما يكتنفه من غموض وإبهام عندما يحاول تفسيره العاملون في مضمار علم النفس. من أجل هذا سنعمد إلى تبني منهجاً مقارناً بين ما قاله العلم المعاصر بلغة المختبرات والأرقام، وما يحمله الخطاب القرآني المعجز من إجابات توفر تربة ملائمة لنمو فرضيات أكثر نضوجاً تبرر هذه الظواهر بلغة علمية رصينة.

## ٢ . مناهج البحث العلمي المعاصر:

للعلم المعاصر غايتان أساسيتان، (الأولى) غاية تكمن وراء جميع أوجه الجهد، والفاعلية البشرية لتسجيل الوقائع، وتشكيل النظريات لتفسير المشاهدات، والتكهن بها، و(الثانية) ثمرة الغاية الأولى، وهي استثمار المعرفة النظرية لتمكين الإنسان من السيطرة على مفردات الطبيعة، وتطويرها بما يخدم أغراضه (١) .

والاستقراء يقود العقل الى تعليل الحقائق المشاهدة وصولاً إلى قانون، أو مبدأ، أو قضية كلية تحكم الجزئيات التي تخضع الى إدراكنا الحسي. وبفضل هذه القوانين نسعى إلى العثور على طريقنا خلال تيه الوقائع الملاحظة، وإلى تنظيم، وفهم عالم انطباعاتنا الحسية، عن طريق صياغة تركيباتنا النظرية لتفسير الواقع، وإلقاء الضوء على انسجامه الباطني (٢) .

تتألف عملية الاستقراء من ثلاثة محاور أساسية، تشمل الملاحظة والتجربة، ووضع الفروض، ثم البرهنة على صحة هذه الفروض وموضوعيتها. إن عصب المنهج التجريبي، هو الفرض، لأنه هو الذي يدعو الى التجريب، والفرض هو البذرة، والمنهج هو التربة التي تزودها بالأحوال الملائمة لنموها وازدهارها، وإعطاء خير الثمرات وفقاً لطبيعتها.

والتجربة عبارة عن ملاحظة دقيقة للظاهرة، بعد تعديلها تعديلاً محسوباً بعناية عن طريق التدخل في صنع بعض الظروف بما ينتج الحادثة، أو الظاهرة في بيئة تساعد على التحقق من صدق فرض طرأ على عقولنا. قال كلود برنار (١٨١٢ - ١٨٧٨ م) في كتابه " المدخل الى الطب التجريبي " : ينبغي بالضرورة أن نقوم بالتجريب، مع وجود فكرة متكونة من قبل. وعقل صاحب التجريب ينبغي أن يكون فعالاً، أعني أنه ينبغي أن يستجوب الطبيعة، ويوجه إليها الأسئلة في كل اتجاه، وفقاً لمختلف الفروض التي ترد عليه (٣) .

من هنا يبدو واضحاً بأن التجربة ليست سوى جهد مستبصر للباحث، يربط فيه الملاحظة بفرض يفسرها، لكي يعود ثانية فيغير من ظروفها بما يخدم الفرض في تبريره للواقعة المشاهدة في قانون عام.

وأما الفرض في معناه العام جداً، فهو تخمين عام، أو اقتراح من نتاج خلق خيال الباحث Creation of Imagination الذي يطرحه لتفسير علة واقعة، أو مجموعة من الظواهر التي سبقت ملاحظتها وتجربتها، أو هو اقتراح مؤقت يهدف الى فهم وتفسير الوقائع المشاهدة والمجربة قبل أن تصير هذه الوقائع دليلاً عليه، وبرهاناً على صدقه (٤) .

لذا فنحن حين نضع فرضاً، إنما نقترح علة من مجموعة علل افتراضية، تكون الظواهر، أو الأشياء الملاحظة، أو موضوعات التجربة معلولات لها وأثاراً. وبذلك فإن الفرض العلمي يثير تجارباً وملاحظات، يمكن الوصول منها الى القانون، فالنظرية التي تصيد في تقديم تفسير، أو عدة تفسيرات تحيل الوقائع المبعثرة الى وقائع مفسرة في إطار بناء فكري متناسق.

وخلاصة الكلام عن العلم المعاصر، بأنه عملية استثمار ملاحظة منهجية، يقوم بها الباحث بصبر وأناة، لاقتراح تبرير يعلل حدوثها، بفرض يعاد اختباره في تجربة تحكم صياغة ظروفها، لكي تدرج في قانون عام يفسرها، لأن قوام كل معرفة علمية هو التعميم في قانون كلي، ولأنه بدون التعميم فإن عملية التنبؤ تغدو شبه مستحيلة (٥).

### ٣ . مفاتيح أبواب النوم والأحلام في ميزان العلم المعاصر :

إن الإنسان، منذ كان، قد التصقت ببشرته الأحلام، فكانت نافذة يطل من خلالها على عوالم جديدة، تصيبه بالدهشة تجاه ما يتلمس فيها، وما تحمله في طياتها من نبوءات المستقبل المجهول.

وإذا استبعدنا الفكر البدائي الأسطوري، نجد بأن ما طرح على طاولة تفسير عالم النوم والأحلام قد انقسم الى مدرستين أساسيتين:

(المدرسة الأولى): تمثل تيار الأديان السماوية التي تعتبر الأحلام لديها منحة إلهية للبشر من الخالق عز وجل، تحمل بين جنباتها النذارة والبشارة.

(المدرسة الثانية): وتنتشر على مساحة واسعة زمنياً وموضوعياً، كانت بداياتها منذ زمن أرسطو عندما ألقى الضوء على مصادر الحلم في رسائله الأولى، فكان الحلم موضوعاً في دائرة الفلسفة، ثم تلقفه علماء النفس فصار جزءاً من علمهم البكر، وأخيراً بات يدرّس على ضوء النظريات البيولوجية في المختبرات. وقد انصبغ كل تفسير من تفاسير هذه المدرسة بالروح العلمية للعصر الذي ظهر فيه، مع ظهور تفسيرات جديدة تحاول البرهنة على تهافت سابقتها، حتى استقر الحلم أخيراً في أحضان المنظور البيولوجي الذي برز بقية النظريات في اكتشافاته، إلا أن هذا لم يبلغ بقية التيارات التي لازالت تضع الفروض، وتصيغ النظريات.

لقد كان ولوج الأحلام في دائرة المنظور البيولوجي مصادفة غير مقصودة، وقد حدث ذلك نتيجة ملاحظة ظاهرة فيزيولوجية أثناء دراسات اختيارية لظاهرة النوم وليس الأحلام، ففي عام (١٨٥٢) لاحظ الباحثان - في موضوع النوم - "أزرينسكي وكلايمان" (٦) ظاهرة حركة العين السريعة - Movement Eye Rapid REM - فامتد بحثهما من هذه الظاهرة لحركة العينين المصاحبة للأحلام ليشمل محاولة اكتشاف ظواهر أخرى تصاحب الأحلام، سوء أكانت هذه الظواهر يمكن مراقبتها عياناً، أو باطنية يمكن تسجيلها بوسائط الرصد والقياس.

كذلك كان لدراسة حركة الدماغ الكهربائية، أثناء النوم، فضلاً كبيراً في إلقاء الضوء على فترات النوم الحاملة، مؤيداً الاكتشاف الأول لحركة العين السريعة (REM) وبذلك أضحت هاتين الظاهرتين، في عصرنا الحالي، الدليل العلمي القاطع على وجود فترات محددة أثناء النوم، والتي تقترن بالأحلام.

### ٣ . ١ . مراتب النوم :

بات تخطيط حركة الدماغ الكهربائية، وحركة العين السريعة للنائم دليلاً قاطعاً على وجود مرتبتين للنوم هما:

أ. النوم غير الحالم Sleep Synchronized

ب. النوم الحالم ( المتناقض ) Sleep Paradoxical

تشكل مرتبة النوم غير الحالم الفترات الأطول زمنياً من النوم، وهي في مجموعها تشغل حوالي أكثر من نصف زمان النوم بأجمعه. أظهرت البحوث في المختبرات بأن فترة النوم غير الحالم تتوالى مع فترات النوم الحالم، بصورة دورية رتيبة، ويتكرر ذلك من ٤ الى ٦ دورات في نوم الليلة الواحدة كدالة لفترة النوم. وقد لوحظ بأن النشاطات الفيزيولوجية في هذه المرحلة إما تقل عما كانت عليه أثناء فترة النوم الحالم، أو أنها قد تنعدم، مثل حركة العينين السريعة، ونشاط عضلات الأذن الوسطى، وارتعاش عضلات الوجه والأطراف.

أما مرتبة النوم الحالم فتتألف من الفترات الزمنية التي تحدث فيها الأحلام، وقد سميت هذه الفترات بالنوم الحالم بناء على نتائج الأبحاث التي أجريت على النائمين، والتي أظهرت بأن إفاقة الفرد من نومه خلال فترات ذات خصائص فيزيولوجية مميزة بأنه كان يحلم في معظم الحالات.

ليست الأحلام العنصر الوحيد الذي يسود الفترات الحاملة، فهناك نشاطات أخرى تحدث خلالها، وهي نشاطات إما فريدة ومميزة لها دون غيرها من فترات النوم غير الحالم، أو أنها تنشط بصورة أكثر وضوحاً خلال فترة الحلم. ويمكن إجمال أهم الفعاليات التي تنزامن مع هذه المرحلة: بالأحلام، وحركة العينين السريعة، وحركة الدماغ الكهربائية، وحركة عضلات الأذن الوسطى، وشدة التوتر العضلي، والانفعالات الجسمية.

www.eajaz.org

### ٤ . العقبات المعرفية أمام تفسير النوم الحالم :

رغم تطور تقنيات مختبرات العلم المعاصر المخصصة لدراسة ماهية الأحلام ومواردها في تربة النوم الحالم، إلا أنه لازالت هناك الكثير من الظواهر تستغل على الفهم، وبحاجة الى تبرير. وسنحاول أن نلخص هذه العقبات بما يلي:

١ . توفر الإمكانيات التقنية لرصد جميع ظواهر فترة النوم الحالم، سواء كانت ظواهر بايولوجية، أو خلوية، أو سلوكية، ما عدا الأحلام، التي لا يمكن فصلها عن غيرها من الظواهر البايولوجية المصاحبة لها. لذا لازال متعزراً على الباحثين إقامة الدليل القاطع على هدف كل ظاهرة من ظواهر النوم الحاملة على حدة، أو على

البرهنة فيما إذا كانت هذه الظواهر البيولوجية ضرورية لحدوث الأحلام، أو على العكس بأن تجربة الأحلام هي ضرورة لازمة لقيام هذه الظواهر المترامنة معها ٩.

٢. خلال فترة النوم الحاملة، فإن الحركة الدماغية تبدو أقرب ما تكون للحركة الدماغية أثناء اليقظة، وهي عادة مزيج من حركات ألفا الطبيعية، ومن حركات بيتا البطيئة نسبياً. ولهذا تعتبر هذه الفترات حالات من النوم غير العميق، وهو اكتشاف يتعارض مع ما كان يظن سابقاً أن الأحلام تحدث في أعمق درجات النوم، بينما تتسم الأخيرة بحركات دماغية بطيئة، مع خلوها من الأحلام.

٣. عند قياس درجة التوتر العضلي عند النوم، وقف الباحثون على حقيقة تناقص هذا التوتر بشكل ملحوظ أثناء فترات النوم الحالم، مع تزامن هذه الظاهرة مع كل من: حركة العين السريعة، الحركة الكهربائية للدماغ، حركات الأذن الوسطى، كما تبين بأن الارتخاء العضلي هو أكثر درجات الارتخاء شدة بالمقارنة مع ما يحدث أثناء النوم غير الحالم، أو أثناء اليقظة، أي بمعنى آخر هناك تناقص في المفاهيم: فالنوم الحالم هو أكثر درجات النوم سطحية وقرّباً لحالة اليقظة، بينما هو في نفس الوقت أكثر درجات النوم من حيث الارتخاء العضلي ١. من أجل هذا أطلق عليه اصطلاح النوم المفارق Sleep Paradoxical.

٤. تحدث في فترة النوم الحالم، زيادة ملحوظة في نشاط الجهاز العصبي الذاتي، مقترنة مع زيادة مماثلة في إفرازات الغدة الكظرية (الأدرينال)، وهو تغيير لا مثيل له في حالات النوم غير الحالم، أو حالات اليقظة (٧).

٥. حالة الوعي تكون مفقودة أثناء النوم غير الحالم، أما أثناء النوم الحالم، فإن الفرد يكون في حالة وعي، فهو يراقب الأشياء، ويشارك فيها، ويظهر الانفعالات العاطفية، وكل ذلك بدون حراك في جسمه أو أطرافه (٨).

٦. وجود ارتفاع ملحوظ في معدلات: سرعتي النبض والتنفس، ضغط الدم، نسبة استهلاك الأوكسجين، درجة حرارة الجسم والدماغ، وكمية سيلان الدم في القشرة الدماغية.

٧. حصول ارتفاع في عتبة الإفاقة من النوم، أي أن النائم لا يستيقظ من رقاذه إلا بصعوبة كبيرة عند المقارنة مع استيقاظه من النوم غير الحالم، رغم أن الحركة الدماغية تكون أقرب إلى حالتها أثناء اليقظة ١.

وقد عبر الدكتور على كمال عن المفارقة التي وقع فيها علماء النوم والأحلام لتبرير ما ذكرناه أعلاه من ظواهر متناقضة خير تعبير في أبوابه الموصدة (٩) فقال: وهنالك عدة اجتهادات لتفسير هذه المفارقات، والتي تجمع في آن واحد بين دلائل سطحية النوم ودلائل عمقه، ومن هذه التفاسير هي أن النوم الحالم هو أقل عمقا، أما صعوبة إفاقة الحالم من نومه، فإنها لا ترد إلى عمق نومه، أو إلى ارتفاع عتبة تحسسه بالإثارات الخارجية، وإنما لأنه لا يستوعب هذه الإثارات في أحلامه، ويدمجها بمحتوى أحلامه بصورة أو بأخرى. أما لماذا يكون التراخي العضلي في أقصى درجاته أثناء النوم الحالم، والذي له أن يدلل منطقياً على عمق النوم، فإن تفسيره لازال ممتنعاً، وهناك من يرى في هذه الظاهرة أثناء النوم الحالم بأنها وسيلة للمحافظة على الطاقة، بينما يرى آخرون بأنها



من مخلفات نمو وتطور الكائنات الحية، والتي كانت تحس بأمان أعظم إذا ما ظلت بدون حراك أثناء نومها؟. إذن نخلص مما تقدم بأن العلم المعاصر، رغم تقنياته التي فرضت وجوده على ساحة التبرير الموضوعي للظواهر، يفترق في بعض الجوانب الى فروض مقبولة لتعليلها، وأن صياغاتنا للقوانين، لا يمكن أن تعلن استخراجها كعنصر من الأشياء، بل هي تركيب عقلاني، وهي رمز ونتاج لاستعدادنا لتبديل الزوايا التي ننظر منها الى الثبات في العالم ( ١٠ ) . وعليه فان دراسة الظواهر المصاحبة لظاهرة النوم الحالم ، في مختبرات العلم المعاصر، لا تعني فهم أسراره الباطنة بل إلقاء الضوء على البيئية التي يبرز من بين جنباتها الحلم، وشتان بين الاثنين!.

## ٥ . المنهج الإسلامي في معالجة فرضيات الأحلام :

يعتبر القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة المورد الأساس الذي يتكئ إليه المنهج الإسلامي في تأصيل فرضياته، وصياغة نظرياته لشتى جوانب الحياة.

ولقد وردت في القرآن الكريم حقيقة على درجة كبيرة من الأهمية تبصرنا بجانب مهم من عالم النوم والأحلام الذي أوصدت أبوابه، واكتنفته الغموض. ففي الموضوع الأول قال الله تعالى في كتابه العزيز (١١)

(( هو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار... )) . الآية، وقال تعالى في الموضوع الثاني (١٢) (( الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى .. )) . الآية.

وفي هاتين الآيتين الكريمتين إشارة واضحة الى توفية النفس عند النوم، وولوجها مرحلة النوم الحالم في عالم برزخي. تنتقل الروح عند رقيها فيه. بين مراتب متفاوتة، ثم تعود ثانية الى العالم الشهودي عند

الاستيقاظ، لذا كان عندما يلجأ الى فراشه صلى الله عليه وسلم يقول (١٣) : " باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه. إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين. " ، ويقول عند نهوضه صلى الله عليه وسلم من النوم " الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، واليه النشور. " .

ولتوظيف اصطلاح "التوفية" بما يزيل العقبات التي تعترض لتعليل مرحلة النوم الحالم، وتبديد سحابة الغموض التي تحيط به، سنعمد الى صياغة فرض علمي جديد يفتح آفاقاً جديدة أمام تجارب رائدة تهدف الى تقديم تفسيرات مقنعة للنوم المفارق.

ولكي يفيد الفرض الجديد من التجارب، وينير الدرب أمام استنباط النتائج المثمرة منها، ينبغي:

١. أن يكون واضحاً، ومحدداً، ودقيقاً، لئلا يفسد في ولا غموض، يسمح باستخراج نتائج يمكن اختبارها بالخبرة الحسية، بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

٢. ألا يتعارض مع قانون طبيعي، قد سلّم بصدقه بصورة متواترة، وغير متناقض مع قوانين الفكر.

٣. أن يكون قادراً على تفسير جميع الوقائع التي أخضعها للاختبار، لا لتفسير شريحة محددة منها، معرضاً عن جوانب أخرى تترايط مع تلك الشريحة ارتباطاً جوهرياً.

لقد أبحنا لأنفسنا إطلاق اصطلاح "الفرض العلمي" على ما سنورده في التوفية، لأنه يصح اعتبار التعليل فرضاً متى ما عبر عن علة لمجموعة معينة من الظواهر المصاحبة للنوم الحالم، وبما يقود خطى الباحث ويوجهها نحو حل المسألة وتحديد التجارب أو الملاحظات المطلوبة، وانتقاء التقنيات المخبرية التي تعينه على اجراء تجربة أدق، وملاحظة أعمق، على ضوء هذه الفرضية بما يحيل الوقائع المبعثرة الى وقائع مفسرة تنضوي تحت نسق أحكمت صياغة حدوده العلمية بدقة.

## ٥. ١. الفرضية المقترحة لتعليل مرحلة النوم الحالم:

تتكئ الفرضية المقترحة الى الحقيقة القرآنية المعجزة التي أشارت بوضوح الى توفية النفس في مرحلة النوم الحالم، وتعضدها الآثار النبوية الشريفة التي تدور حول نفس الموضوع. لذا سنشرع بإلقاء الضوء على تفاصيل التوفية، وما تحتمله من معان لغوية واصطلاحية تمهيداً لصياغة الفرضية المذكورة.

إن اصطلاح "التوفية" الوارد في القرآن الكريم يحمل عدة معان (١٤)، وينتصب وراء كل معنى من هذه المعاني مذهب في تفسير حقيقته. فالوجه الأول للتوفية، هو قبض الروح عن الجسد ومفارقتها له. وقد ورد هذا المعنى في سورة النساء "إن الذين توفاهم الملائكة..". الآية، وفي سورة النحل "تتوفاهم الملائكة..". الآية، وفي تنزيل السجدة "قل يتوفاكم ملك الموت..". الآية (١٥)

وقد أخرج الإمام الدارقطني حديثاً يؤشر نحو تطابق توفية النوم مع الموت (١٦) من حديث جابر بن عبد الله قال: قيل يا رسول الله! أينام أهل الجنة؟ قال "لا النوم أخو الموت، والجنة لا موت فيها". قال ابن زيد: النوم وفاة، والموت وفاة.

وقد اعتبر أنصار هذا الوجه توفية الله عباده في منامهم بالليل موتاً أصغراً، إذ أن الأرواح تقبض عند النوم، فتفارق الجسد مفارقة مؤقتة الى أجل مسمى عند الله تعالى. وأما الموت فهو التوفية الأكبر، لأن الأرواح تفارق أجسادها مفارقة دون إرسال لحين البعث (١٧).

والوجه الثاني، يرد بمعنى الرفع الى السماء، كما في قوله تعالى لعيسى بن مريم عليه السلام "إني متوفيك ورافعك إلى...". الآية، وفي سورة المائدة "فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم..". الآية (١٨)، لذا فالأرواح



المقبوضة بالنام تعرج في عالم الرؤيا فترقى كل منها الى مرتبة تليق بكمالها.

ويحمل الوجه الثالث للتوفي معنى قبض الحس في النوم، كما ورد في قوله تعالى " وهو الذي يتوفاكم بالليل... ". الآية (١٩)، وهو مذهب الحبر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، إذ يستدل من قوله تعالى على استعارة التوفي من الموت للنوم، لما بينهما من المشاركة في زوال إحساس الحواس الظاهرة والتميز، وبذلك فان توفية الأنفس عند نومها هو إمساك لها عن التصرف في الأجساد مع بقاء اتصال الأرواح بها (٢٠).

على ضوء ما نقل من أقوال تفسر معنى التوفية، يمكن أن تصاغ الفرضية التالية:

" إن الظواهر المفارقة التي تصاحب مرحلة النوم الحالم Sleep Paradoxical يمكن أن تعزى الى توفية النفس البشرية في حدود عالم النوم الرحيب. وتتألف التوفية من عدة مراحل:

المرحلة الأولى: تبدأ بقبض الأحاسيس عن التصرف في أعضاء الجسد، فينقطع ضوء الروح عن ظاهره دون باطنه.

المرحلة الثانية: وتتألف من مراتب روحانية لا يمكن حصرها، لارتباط كل مرتبة من هذه المراتب بمتغيرات تنشأ عن طبيعة الرائي والمرئي. فقد يقتصر التوفي على انحباس في باطن البدن، بين أحاسيسه وأماله، فيرى النائم في منامه ما اختزن في أعماق الذات (الشعور)، أو تظهر خيالات طبيعية تنشأ عن تنبه النفس بأذاها في ساحة البدن. أو ترتقي في عالم الأرواح، فتلتقي بأرواح الأحياء والأموات فتتعارف، وتتذكر في إطار مفردات النوم الحالم."

## ٢.٥ . تبرير الفرضية المقترحة:

قد تبدو الفرضية المقترحة بعيدة عن الواقع العلمي بمعيار المشتغلين في مضمار سيكولوجية الأحلام، إلا أن سبر دلالاتها بمعيار منصف يزيل عن كثير من مفرداتها سحابة الشك بمصدقية موضوعيتها إذا ما قورنت بالفرضيات التي اقترحها علماء هذا الشأن من بنات أفكارهم عند محاولة تبرير تناقض المفاهيم في مرحلة النوم المفارق.

لذا سنحاول امتحان مفردات الفرضية، عن طريق السبر والتقسيم، مع اعتماد الحقائق الموضوعية التي توصل إليها العلم المعاصر في رحلته الطويلة في غياهب عالم النوم والأحلام.

١. اقترحت الفرضية اصطلاح التوفية لتفسير النوم بجميع مراحلها، وهذا الإصطلاح يتطابق موضوعياً في دلالاته ومحمولاته مع محمولات النوم، وصفات النائم، فالنائم تقبض أحاسيسه وتتوفى عن التصرف بظاهر الجسد، وهذا مما لا ينكره المشتغلون في سيكولوجية النوم والأحلام.

٢. إن حدوث جملة من الظواهر المرافقة للنوم الحالم من: حركة العين السريعة REM. والحركة الدماغية،

ونشاط عضلات الأذن الوسطى، والإرتخاء العضلي، والتغيرات الفيزيولوجية الجسمية، والتغيرات الكيميائية، وتزامن هذه النشاطات مع بعضها البعض خلال هذه الفترة من النوم، يؤشر بوضوح بأن جميع هذه الظواهر ليست بالنشاطات العشوائية بل إنها أطراف متعددة لعملية واسعة ومتناسقة تسود البدن البشري كانعكاس لحصول ظاهرة تتناقض مع البيئة الفيزيولوجية للإنسان في فترة اليقظة. فإذا كان السؤال الذي يطرحه علم النفس عن هذه الظواهر هو: ما هي أعراض هذه الظواهر؟ وما هو مدى وأهمية كل فعالية من هذه الفعاليات في تحقيقها؟! (٢١). وكانت إجابتهم على هذه المسألة بأنه مازال كل ذلك مما لم يتوفر العلم المعاصر على الوثوق من أمره حتى الآن..!، فإننا بالمقابل نجيب بأن جميع هذه الظواهر هي انعكاس لظاهرة التوفي وولوج النائم الى عالم برزخي جديد، تختلف مفرداته وشبكة ارتباطاتها عما هي عليه في عالم اليقظة، لذا تتحرك العين بسرعة، ويزداد نشاط الدماغ، وترتفع درجة حرارته ويصاحبها ارتفاع درجة حرارة الجسم، لأن البيئة المحيطة بالنائم قد انقلبت رأساً على عقب!.

٢. إن قبض الروح عن ظاهر البدن، ينتج عنه ظاهرتين قد أشارت إليهما البحوث المعاصرة في ميدان الأحلام، (الأولى): الارتخاء العضلي الشديد بالمقارنة مع النوم غير الحالم، أو أثناء اليقظة، وفي هذا الأمر دلالة قاطعة على وجود تغيير حاسم في مرحلة النوم الحالم. ويبرر هذا الأمر لدينا بسبب التوفية، لذا يكون الارتخاء العضلي في أقصى درجاته، لأن النفس قد توفاهها الله عن بدن النائم. و(الثانية) ارتفاع عتبة الإفاقة في مرحلة النوم الحالم، وكيف يستيقظ من توفت روحه كمن لم يلج هذه المرحلة، والفارق بينهما ينجم عنه الفارق الملاحظ في عتبة الإفاقة.

٤. إن توفية النائم لا تعني غياب الوعي، بل توقف عن التصرف بالجوارح وولوج في عالم روحاني ذي أبعاد لا أقلدية!، وعليه وفق الفرضية المقترحة فإن الوعي لن يتضاءل في النوم عما هو عليه في فترة اليقظة، وهذا مما تؤكدته النظريات الحديثة والتي تؤشر بوضوح نحو تقارب الحركة الدماغية أثناء اليقظة، مع الحركة الدماغية في فترة النوم الحالم لأن البدن قد أغضت حواسه واستيقظت روحه على تباشير صباح برزخي لا نهاية لأطرافه الممتدة.

## ٦. ملحوظات ختامية:

إذا كان الإنسان الغربي، في عصرنا الراهن، قد اختص بالعلم وأنه قد فرض وجوده على العالم باعتباره إنساناً تقنياً أولاً، فهذا لا يعني أن مقومات المعرفة العلمية قد احتكرها العلم الذي أنشأه الغربيون صرحه فحسب. فالعقل البشري لا يملك إلا قوالب مهمتها تخثير الوقائع المنقولة إليه عن طريق صياغة فرضيات على ضوء الوقائع المشاهدة، وإن هذه الفرضيات والنظريات لا يمكن أن تستعمل إلا في حدود الموضوع المشخص، وتصبح عاجزة تماماً إذا ما وجهت لتبرير موضوع مفارق في حدود التجربة الدينية والروحية.

والعقل منذ أن صدع الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانت بنظريته النقدية في كتابه الشهير " نقد العقل المجرد " (٢٢) أصبح أداة لا تستعمل إلا في ميدان خاص هو حدود العالم الذي نعيشه مع استبعاد التجربة الميتافيزيقية ( حسب اصطلاحه ) عن دائرته وإحاقها بدائرة الشيء بذاته الذي يقبع خارج حدود اهتماماته.

إلا أنّ السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام هو : هل أنه لا يوجد نظام معرفي آخر، وله أداته الخاصة في تبرير الوقائع المشاهدة والتي لا تقع في دائرة الظاهرة الحسية البحتة؟ أو هل يصح القول بالأحرى أن التجربة الدينية قد أضحت طلالاً لا يؤبه بفرضياته لأن أداة فهمها غير موجودة بين مفردات العلم المعاصر ؟.

وإذا تتبّعنا تاريخ المعرفة البشرية حتى نهايته، أدركنا بأن العلم المعاصر لم يبلغ وجود التجربة الدينية، ولكنه أغنى معقوليتها بمعياره التجريبي بيد أن مكانتها لازالت في المستوى الذي يلائم طبيعتها، وهو مستوى الاعتقاد، لأن العلم أداته العقل الذي يسبر ويقسم، لكي يصنع للأشياء الخارجية معقوليتها وحدود فهمها، أما التجربة الدينية فأداتها الوجدان الذي يؤمن بالنص الإلهي المنقول كحقيقة غير قابلة للنقض حتى ولو نبت عن الفهم البشري القاصر ودون الحاجة إلى متواليات العلة والمعلول. إلا أن هذا لا يعني إقصاء العقل عن دائرته بل يعتصد العلم بنسخ الروح التي تعمق فهمه للوقائع وما يكمن وراء ظاهرها الشاحب. ذلك لأن تطابق العقل مع النظام النظري الذي صنع وفقاً لفرضياته يجعله يقبل بخداع نفسه، لأنه قد قبل بإيداع نشاط فهمه للوقائع داخل الحدود التي اصطنعها على ضوء تجاربه التي تقصر عن احتواء جميع الحوادث التي تحيط بالواقعة، فيقتنع نفسه بتطابق الذات والموضوع، ليتولد لديه الإحساس باليقين، وهو يقين مخادع، ونسبي.

إذن ينبغي أن نضع نصب أعيننا دائماً بأن مورد العلم المعاصر يقتصر على التجربة وهي الينبوع الوحيد الذي ينهل منها حقائقه، لذا فإن كل ما خرج عن حدودها لا يحمل أية خصيصة تشد العلماء للتفكير به أو إدراجه في قائمة اهتماماتهم. بالمقابل فإن قوانين الطبيعة إنما هي نتاج تقطيع وتفكيك المادة (٢٣)، كما قال أدوار لوروا، وأن كل قانون لا يجرؤ أن يعلن أنه عنصر مستخرج من الأشياء، بل يعلن أنه من تركيب العقل المنشغل بالتقطيع المميز لوجهة نظره ليس إلا.

لذا إننا ندعو نحو استثمار الخطاب القرآني المعجز واعتماده كخطاب معرفي يحمل بين طياته ما يغني العلم المعاصر بأفاق جديدة لفهم بعض الوقائع، بصورة مباشرة، من خلال معالجتها في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. أو بصورة غير مباشرة، من خلال المنهج الذي عولجت من خلاله الوقائع المذكورة في الكتاب والسنة، ونكون بذلك قد أغنينا معارفنا بمصدر جديد يزيل الغموض عما أعجم علينا من فهم بعض الوقائع التي نحاول فهمها، ولا نقتصر على حدود التجربة الضيقة.

وعلى هذا، فإن ما ذكرناه بخصوص تبرير ما يلاحظ في مرحلة النوم المفارق، يفتح أمام المشتغلين في ميدانه آفاقاً جديدة لدراسته على ضوء ما حفل به القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فتختبر كل مرحلة من مراحلها على ضوء ما حملته اصطلاح التوفيقية، فنعمد الى التمييز بين الظواهر المصاحبة لمحتوى المنام وهل أن هذه

الظواهر تتزامن مع الحلم الذي يكون محتواه سجيناً في حدود معاناة البدن، أم أنها تقتصر على الرؤى التي ترقى فيها الروح الى عوالم أكثر سموً وبعداً عن حديث النفس وأحاسيس البدن؟ كذلك هناك مجالات جديدة أمام دراسة نشاط الحركة الدماغية لإيجاد الحد الفاصل بين النوم كظاهرة فيزيولوجية بحتة، وبين مرحلة التوفية، وغيرها كثير...

بيد أننا نود أن نلفت الانتباه نحو حقيقة على درجة كبيرة من الأهمية، هي أن اقتراحنا لهذه التجارب لا يعني وجود ارتباط جوهري بين اعتقادنا التي اثبتت على ما حملته النصوص الشرعية، وبين ما ستنم عنه التجارب التي اقترحت آنفاً، لأن لغة العلم مهما دقت عباراتها، وعمق محتواها، ودعمتها التجارب والأرقام، فإنها قد تزيح اللثام عن بعض محمولات ألفاظ النص، فتخصص بعض مفرداته أو تعميمها، إلا أنها في النهاية لن ترق الى مناقضته أو إلغاءه.

## ٧ . الهوامش والإحالات:

- (١) . الفيلسوف والعلم: ١٨٤ / الإستقراء والمنهج العلمي: ١٤٤ .
- (٢) . مدخل جديد الى الفلسفة: ٧٢ .
- (٣) . نفس المرجع .
- (٤) . المنطق ومناهج البحث العلمي: ٢٨٥ / الإستقراء والمنهج العلمي: ٤٧ .
- (٥) . نشأة الفلسفة العلمية: ١٨ .
- (٦) . باب النوم وباب الأحلام: ٣٢٦ .
- (٧) . نفس المرجع: ١٣٢ .
- (٨) . نفس المرجع: ٨٨-٨٨ .
- (٩) . نفس المرجع: ١٠٢-١٠٢ .
- (١٠) . مدخل جديد للفلسفة: ٨٢ .
- (١١) . سورة الأنعام: ٦٠ .
- (١٢) . سورة الزمر: ٤٢ .
- (١٣) . فتح البارئ: ١٢ / صحيح مسلم ٤٧٨: ٢ .
- (١٤) . المدخل الى الرؤيا وتعبيرها : ٢٧-٣١ .
- (١٥) . سورة النساء: ٨٧ / سورة النحل: ٢٨ / سورة السجدة: ١١ .
- (١٦) . المدخل الى الرؤيا وتعبيرها : ٢٨ .
- (١٧) . نفس المرجع .

- (١٨) - سورة آل عمران: ٥٥ / سورة المائدة: ١١٧ .  
 (١٩) - سورة الأنعام: ٦٠ .  
 (٢٠) - المدخل الى الرؤيا وتعبيرها : ٢٠ .  
 (٢١) - باب النوم وباب الأحلام: ١٣٤ .  
 (٢٢) - استراتيجية التسمية: ٤٤ .  
 (٢٣) - مدخل جديد الى الفلسفة: ٨٢ .

## ٨. المراجع:

- (١) . استراتيجية التسمية في نظام الأنظمة المعرفية، لمطاع صفدي، ١٩٨٦، مركز الإنماء القومي، بيروت.  
 (٢) . الاستقراء والمنهج العلمي، للدكتور محمود زيدان، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، القاهرة.  
 (٣) . باب النوم وباب الأحلام، للدكتور على كمال، الطبعة الثانية، ١٩٩٠، دار واسط للنشر، بغداد.  
 (٤) . الصحيح، للإمام مسلم النيسابوري، بدون تاريخ، دار الفكر، بيروت.  
 (٥) . فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت.  
 (٦) . الفيلسوف والعلم، لجون كيمني، ترجمة الدكتور أمين شريف، ١٩٦٤، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر، بيروت.  
 (٧) . المدخل الى الرؤيا وتعبيرها، لحسن مظفر الرزق، ١٩٩٠، شركة بيت الموصل، الموصل.  
 (٨) . مدخل جديد الى الفلسفة، للدكتور عبد الرحمن بدوي، ١٩٧٤، وكالة المطبوعات، الكويت.  
 (٩) . المنطق ومناهج البحث العلمي، للدكتور على عبد المعطي محمد، ١٩٧٦، دار الجامعات المصرية، القاهرة.